حماية الدين من التحريف

رفاعي سرور

دار هادف

الطبعة الأولى

1428-1429هـ

رقم الإيداع

حماية الدين من التحريف

إن من أهم حقائق التصور الإسلامي.. الإحكام المنهجي للدين، والخلل في هذا الإحكام أو فقدانه هو أخطر أسباب ضياع الدين..

والإحكام الفكري في الإسلام: إحكام في الاعتقاد والفكر، وإحكام في الواقع والتطبيق.

وهو ما يقابل عند النصارى: الابتداع، والتناقض، والتحريف، وفقدان التوازن، والتشتت، والعجز عن الاستيعاب الذهني..

والإحكام مُشتقٌّ من الحكمة..

وتعريف الحكمة هو الذي يفسر قيمة الإحكام، حيث يعرِّف الإمام ابن القيم الدرجة الأولى من الحكمة فيقول: (أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حدَّه، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه).

ثم يقول: (وهذا الحكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعًا وقدرًا..

فإضاعتها تعطيل للحكمة، بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض..

وتعدي الحد كسقيها فوق حاجتها بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد..

وتعجيلها عن وقتها كحصاده قبل أوانه وكماله[1].

ومن هنا يأتي إحكام الفكر في الإسلام لتنظيم العلاقات بين حقائق الفكر، إذ إن لكل حقيقة في الإسلام حدًّا لا ينبغي تجاوزه..!

والمساواة بين الحقائق في كونها «فكرة» من أهم أسباب الاضطراب العقدي والفكري، ومن هنا جاءت تعبيرات النبي صلى الله عليه وسلم بما يفيد العلاقات المنظمة بين الحقائق.

فمثلاً نجد التعبير **بأم الكتاب** في قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا صلاة لمن**

([1]) مدارج السالكين (469/2).

لم يقرأ بأم الكتاب»[2].

والتعبير **بسيد الاستغفار** الذي جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبرك بسيد الاستغفار؟»[3].

والتعبير **برأس الأمر** الذي جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه..؟» قلت: بلى يا رسول الله! قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد»**[4].

فتعبيرات (أم) و(سيد) و(رأس) تفيد طبيعة العلاقة.

وكذلك نجد في تعبير النبي صلى الله عليه وسلم حرصًا على ألا يطغى مفهوم على مفهوم تحقيقًا للإحكام بين المفاهيم، مثال قوله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله[5] ثم قرأ: (فذكر إنما أنت مذكر* لست عليهم بمصيطر) [الغاشية: 21-22] وذلك حتى لا تطغى مهمة القتال على مهمة التذكير في فهم الناس.

وكذلك عندما بَيَّن النبي صلى الله عليه وسلم بأن الوضوء وصلاة ركعتين وراءه يغفر ما تقدم من الذنوب، ثم حذر من الاغترار.. فإنه يحقق الإحكام بين

([2]) متفق عليه: البخاري في الأذان (2/237) و مسلم في الصلاة (394) من حديث عبادة بن الصامت.

([3]) البخاري في الدعوات (11/97) من حديث شداد بن أوس.

([4]) صحيح: الترمذي في الإيمان (7/362) وقال: حسن صحيح، والحاكم في التفسير (2/412) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، والمسند (5/531).

([5]) متفق عليه: البخاري في الإيمان (1/75)، ومسلم في الإيمان أيضًا رقم (22) عن ابن عمر.

الرجاء والغرور، فقد دعا عثمان رضي الله عنه بوضوء فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ في مقعدي هذا ثم قال: «**من توضأ مثل وضوئي هذا، ثم قام فركع ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه**»[6] وقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ولا تغتروا**».

وكذلك عندما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما من مؤمن يموت له ثلاثة أولاد إلا كانوا له حجابًا من النار**»[7] فإنه صلى الله عليه وسلم يستثني استثناء هامًّا فيقول: «**إلاَّ تَحِلَّة القَسَم**» وهو قول الله: (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) [مريم: 71].

وبذلك تتقرر حقيقة الحجاب من النار بموت الثلاثة أولاد، مع حقيقة الورود عليها تحلةً للقسم دون تناقض.

وأساس الإحكام الفكري في الإسلام هو أن تكون كل الحقائق متجهة نحو غاية نهائية واحدة.. ولتحقيق ذلك يجب قياس كل حقيقة إلي غايتها.. فمثلاً:

حقيقة الإيمان تقاس بقول (لا إله إلا الله) بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.. والحياء شعبة من الإيمان**»[8].

وحقيقة العمل تقاس بالصلاة بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سئل: أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» قيل: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**» قيل: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» هو قوله صلى الله

([6]) متفق عليه: البخاري في الوضوء (1/259)، ومسلم في الطهارة (226) عن عثمان بن عفان.

([7]) متفق عليه: البخاري في الجنائز(3/18)، ومسلم في البر رقم (3632) عن أبي هريرة، وتفسير تحلة القسم من كلام البخاري وليس بمرفوع.

([8]) مسلم رقم (35) في الإيمان من حديث أبي هريرة وعند البخاري نحوه في الإيمان أيضًا.

عليه وسلم: «**أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله**»[9].

وحقيقة المقام والمكانة تقاس إلى مقام النبوة بدليل قول الله عز وجل: (فأولـئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولـئك رفيقا) [النساء: 69] وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**»[10] وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى، وقوله: «**التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصدقين والشهداء والصالحين**»[11].. وهكذا..

وقيمة الإحكام الفكري في الإسلام ترجع أساسًا إلى أنه المقدمة الطبيعية للإحكام التطبيقي، الذي يضمن قيام الواقع الإسلامي بصبغته الخالصة كما أرادها الله سبحانه.

وعلى ضوء حقيقة الإحكام المنهجي في الإسلام لا ندري:

كيف يعجز النصارى عن تحديد تصور كامل ومقنع عن الله والاتفاق عليه..؟!

وكيف يتبدل الدين بمعدل زمني رهيب وفقًا للأهواء المتجددة، فتتفاقم الخلافات وتتزايد الطوائف، وتنشأ مشكلة جديدة مع كل محاولة لعلاج مشكلة قديمة..!

***

ومن الإحكام المنهجي في الإسلام تكون هذه الحقائق:

حماية الوحي من لبس الشيطان..

---

(9) أخرجه الترمذي رقم (413) من حديث أبي هريرة و حسنه والنسائي (1/232)، وأحمد (5/377) ونحوه (2/290)، والحاكم (1/263) وصححه ووافقه الذهبي- وهو كما قالا.

(10) البخاري (10/236) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(11) الترمذي رقم (1209)، والحاكم (2/6) من طريق الحسن عن أبي سعيد.

وحماية الدين من الزيادة والنقصان..

وحماية النصوص من اللبس والتحريف..

وحماية مقام النبوة من الغلو والإطراء..

وحماية صفة أهل الحق بالمفاصلة مع أهل الباطل..

حماية الوحي من لبس الشيطان:

لقد كانت هناك أسباب تاريخية متكررة لضياع الدين..

من أبرز هذه الأسباب.. التدخل الشيطاني الذي يهدف لتكريس الغواية عبر تضييع مصدر الهدى وهو الدين..

فعندما تغيب النبوة.. تتحرك الشياطين..!

هكذا كان الأمر عندما ذهب موسى للقاء ربه.. فظهر السامري..

وهكذا كان الأمر عندما رُفع عيسى.. فظهر بولس..

وهكذا كان الأمر عندما تُوفِّيَ الرسول صلى الله عليه وسلم.. فظهر مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وسجاح والمختار الثقفي..

ظاهرة شيطانية واحدة.. لها دافع واحد: الالتفاف حول الوحي.. والانقضاض على الدين واختطافه.. لتزويره وتضييع مضمونه وفاعليته..

ولكن هذه المحاولات الشيطانية عولجت بأساليب متعددة..

منها عودة النبوة إلى الواقع.. وتمثل ذلك في رجوع موسى وتحريقه لعجل السامري ونسفه..

وعندما ظهر بولس بعد رفع عيسى لم يتم معالجة هذه المحاولة كما تم ذلك في حالة موسى والسامري..

إذ تمكن بولس من زرع بذرة الوثنية التي أثمرت وفرخت في عصر قسطنطين..

ولما كان **الجهاد** هو أساس حجية واقع الأمة الإسلامية **كان أداة الحماية من التحريف** التي حسمت هذه الظاهرة الشيطانية في تاريخ الأمة الإسلامية عبر حروب المرتدين..

ومن المثير أن يكون معظم الجيش الذي قاتل المرتدين ومدعي النبوة من القراء الذين هم حفظة الوحي..

مما يدل على أن المهمة كانت مهمة حماية.. وليست مجرد مهمة قتالية..

لدرجة أن فكرة جمع القرآن -المنقول إلينا شفاهة بالأصالة- في مصحف واحد نشأت كنتيجة لكثرة من قُتل من القُراء..

لتبقى مهمة الحماية..

ومن حماية الدين من لبس الشيطان.. تأتي قاعدة أهل السنة والجماعة في التعامل مع الخوارق والأحلام، والتي يقررها الإمام ابن تيمية فيقول: (كل من خالف شيئًا مما جاء به الرسول مقلدًا في ذلك لمن يظن أنه ولي الله، وأن وليَّ الله لا يخالِف –الله ورسوله- في شيء، ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان- لم يُقبل منه ما خالف الكتاب والسنة؛ فكيف إذا لم يكن كذلك..؟!

وتجد كثيرًا من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه وليًّا لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة مثل أن يشير إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها، أو يمشي على الماء أحيانًا، أو يملأ إبريقًا من الهواء، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب أو أن يختفي أحيانا عن أعين الناس، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته، أو يخبر الناس بما سرق لهم، أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك من الأمور.. وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يُغتر به حتى يُنظر متابعته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموافقته لأمره ونهيه.

وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها وليًّا لله فقد يكون عدوًّا لله، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين وتكون لأهل البدع وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله، بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة).

وبهذه القاعدة السلفية حسمت مادة الأحلام والأوهام والخوارق كمدخل لتحريف دين الله..

ومن حماية الدين من لبس الشيطان.. الإيمان بانقطاع الوحي بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم..

فقد روى الإمام البخاري في أول كتاب «الشهادات» من طريق عبد الله بن عتبة قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «**إن ناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله** صلى الله عليه وسلم، **وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم**»..

وورود هذا الأمر على لسان أمير المؤمنين عمر، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمر بن الخطاب**»، والذي قال فيه أيضًا: «**لقد كان فيما قبلكم من الأمم مُحدَّثون.. فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر**»..

فيه أقوى دلالة على انقطاع الوحي وحمايته من التحريف.

حماية الدين من الزيادة «الابتداع»:

وعلى أساس الارتباط بين الحكمة والإحكام كان التقابل بين الحكمة والبدعة؛ ذلك أن البدعة هي في تطبيقها فكرة دخيلة علي إطار الفكر الإسلامي المُحكم، وقد أورد الإمام ابن تيمية في التقابل بين الحكمة والبدعة قول الإمام أبو عثمان النيسابوري: (من جلس إلي صاحب بدعة حُرِمَ الحكمة)، كما قال: (من أمَّر السنة علي نفسه قولاً وعملاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وعملاً نطق البدعة).

وحماية الدين من البدعة تكون بالحساسية المرهفة في التعامل مع قضايا الدين، وهؤلاء هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتكون رجلاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه يقرأ في كل صلاة بسورة (قل هو الله أحد) رغم أن الفعل جائز شرعًا إلا أنهم رأوا في هذا العمل مظهرًا جديدًا في التطبيق.

وقد ورد حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم يتضمن حقيقة حماية هذا الدين بقدر الله..

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته»**.

ذلك أن منع التوبة عن المبتدع معناه: منع إقرار هذا المبتدع على بدعته.

وفي المقابل نرى تاريخ النصرانية مليئًا بالبدع والمبتدعين الذين يسمونهم هراطقة.. لدرجة أنك لا تكاد تميز بين المبتدع وغيره.. لكثرة هذا الأمر فيهم..!

وفي الوقت الذي يفزع الصحابة من مجرد مواظبة رجل لقراءة سورة الإخلاص في الصلاة.. نجد النصارى ينشئون دينًا كاملاً بكل طقوسه وتقاليده بدون أي سند من الكتاب، حتى صار أغلبهم يُدعى: التقليديون (الكاثوليك والأرثوذكس) وهم الذين يتبعون ما يسمَّى بالتقليد الكنسي.

يقول عنهم مؤلف اللاهوت النظامي: (التقليديون هم الذين يؤمنون بسلطان الكتاب المقدس بالإضافة إلى تقاليد الآباء. والتقليد «عندهم» هو ما تسلَّموه وتداولوه خلفًا عن سلف، من العقائد والشعائر الدينية، مشافهةً، مما لم يُكتب في الأسفار المنزلة).

ونحن بالطبع نتحفظ على لفظ «الأسفار المنزلة» الذي لم تعرفه النصرانية في تاريخها.. ولم يقل به كاتبو تلك الأسفار أنفسهم..!

ومن أبرز الأمثلة على البدع النصرانية زيادة الصوم من شهر إلى 55 يومًا..!

ناهيك عن تحريف كيفية الصوم من امتناعٍ كاملٍ عن الطعام والشراب والشهوة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.. إلى مجرد الامتناع عن الشهوة وأكل ذوات الأرواح..!

جاء في كتاب «أصوامنا بين الماضى والحاضر»: (جاء فى كتاب قطمارس.. الصوم الكبير حسب طقس الكنيسة القبطية ما يلي: (والأصوام

الزائدة المستقرة فى البيعة القبطية منها ما يجرى مجرى الصوم الكبير فى التأكيد.. وهي جمعة هرقل التي صارت مقدمة للصوم الكبير.. وذلك أنه لما رجع هرقل ملك الروم على بيت المقدس فوجده خرابًا وقد هدم اليهود الكنائس والقبر المقدس وغيرها وأحرقوا النصارى بالنار، فطلب منه أهل القدس قتل اليهود.. فاعتذر لأنه أعطاهم الأمان واليمين؛ أي: أقسم لهم، فقالوا له: أمَّا الأمان فقد علمه كل أحد منهم.. احتالوا عليك فيه، وأما اليمين فنحن وجميع النصارى بكل الأقاليم نصوم عنك أسبوعًا فى كل سنة على ممر الأيام وإلى انقضاء الدهر..!! وكتب البطاركة والأساقفة إلى جميع البلاد بصوم هذا الأسبوع الأول من الصوم الكبير..) وهذه القصة مذكورة أيضًا بالتفصيل كما يؤكد لنا المرجع السابق فى كتاب «نظم الجوهر» لابن بطريق[12].

وهكذا يسري الابتداع في الدين من جيل إلى جيل.. بكل سهولة..!

حماية الدين من النقص:

الكمال هو أول صفات الدين الصحيح، ولذلك كانت هذه الصفة هي أول الصفات التي رضي الله بها لنا هذا الدين: (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم **أكملت** لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم) [المائدة: 3].

ومما يوضح معنى حماية الدين من النقص أن رجلا جاء لرسول الله مبايعًا، وقد وصف حاله قائلاً: (أتيت رسول الله لأبايعه، فاشترط عليَّ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام -أي الأولى- وأن أصوم رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت يا رسول الله: أما اثنتان فوالله ما أطيقهما: الجهاد والصدقة، فإنهم زعموا أن من ولى الدبر -هرب من المعركة- فقد باء بغضب

([12]) تأليف القس كيرلس كيرلس راعي كنيسة مارجرجس بخمارويه، ط1 (1982) ص136.

من الله، فأخاف إن حضرت تلك جشعت نفسي وكرهت الموت. والصدقة، فوالله مالي إلا غُنيمة وعشر ذود -أي: غنم قليلة وعشر من الإبل- هن رسل أهلي وحمولتهم، فقبض رسول الله يده، ثم حرك يده، ثم قال: «**لا جهاد ولا صدقة!! فبمَ تدخل الجنة؟!**» قال: قلت: يا رسول الله أنا أبايعك، قال: فبايعت عليهن كلهن)[13].

فلم يقبل رسول الله صلي الله عليه وسلم البيعة من الرجل إلا على الإسلام كاملاً..

ولذلك أيضًا كانت كلمة أبي بكر الصديق عندما امتنع المرتدون عن دفع الزكاة: (والله لا ينقص الدين وأنا حي)..!

حماية النصوص من التبديل:

يؤمن جميع المسلمين بحفظ القرآن، وقول الله عز وجل: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر: 9].

وكذلك يؤمنون بحفظ السنة في جميع مراحلها..

سواء كانت في مرحلة نقل القول من الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصحابي، مثلما كان في حديث دعاء النوم: عن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «**ألا أعلمك كلمات تقولها إذا أويت إلى فراشك..؟ فإن مت من ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبحت وقد أصبت خيرا..؟! تقول: اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، رغبة ورهبة إليك، وألجأت ظهري إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت**» قال البراء: فقلت **وبرسولك الذي أرسلت**.. قال: فطعن بيده في صدري ثم قال: «**وبنبيك الذي أرسلت**»[14]..

([13]) المسند (22002).

([14]) البخاري (244)، مسلم (2710).

أو مرحلة نقل الصحابي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غيره من المسلمين بأمانة تامة، حتى ولو كان الشك في حرف واحد صحيح، مثلما كان في حديث الخروج من النار إلى الجنة: عن أبي سعيد، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تبارك وتعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيَخرُجون منها قد اسودُّوا، فيُلقَون في نهر الحياء أو الحياة -شك مالك - فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية**».

شك الراوي هل هي همزة أو تاء فقال: الحياء أو الحياة..!

وقياسًا على هذا المستوى في حفظ النصوص الشرعية يمكن إدراك حجم مشكلة النصارى في تحريف النصوص، حيث يكون الحكم ببطلان سبعة عشر سفرًا من العهد القديم واعتبارها ليست عند بعض الطوائف من الكتاب المقدس أمرًا عاديًّا..!

حماية فهم النصوص من اللبس:

وفهم النصوص في الدين الصحيح يكون بالبساطة التي تتناسب مع عقل الإنسان، وهو ما كان معروفًا في الإسلام بمصطلح الأمية.

فالأمية في منهج الدعوة ليست مستوى معرفيًّا ولكنها أسلوب دعويٌّ..

فنحن قوم أُميُّون باعتبار أسلوب الدعوة الذي نراعي فيه كل المستويات البشرية الثقافية والعلمية.. ابتداء من التفهيم بالإشارة..

عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: «**أن رسول الله** صلى الله عليه وسلم **ذكر رمضان فضرب بيديه، فقال: الشهر هكذا وهكذا وهكذا، ثم عقد إبهامه في الثالثة.. فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن أغمي عليكم فاقدروا له ثلاثين**» [15].

وهذا الحد يمثل الحد الأدنى للعقول التي نتعامل معها في دعوتنا.

([15]) متفق عليه: أخرجه البخاري في (الصوم /ح 1906)، ومسلم في (الصيام /ح1080).

وهو نقل الرسالة كما هي باعتبارها فطرة..

وفي الوقت الذي يفسر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بالأسلوب البسيط السهل حتى أيام الشهر بإشارة أصابعه.. لا يستطيع فيه النصارى فهم عقيدتهم ولا شرحها لغيرهم، وهي النتيجة المباشرة لتحريف الدين..!

لأن صحة الدين هي التي تحقق صحة التلقي، وصحة التلقي هي التي تحقق صحة الاعتناق، وصحة الاعتناق هي التي تحقق صحة الدعوة إليه.

حماية مقام النبوة من الغلو والإطراء

لقد حذَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم مرارًا وتكرارًا من إطرائه والغلو فيه، فقال صلى الله عليه وسلم: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم.. فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[16].

إن هذا الحديث يتضمن الخاصية التي تحفظ الإسلام من الضلال الذي وقع فيه اليهود والنصارى، وهي الدقة التامة في التعامل مع النصوص الشرعية:

«**إنما أنا عبد.. فقولوا: عبد الله ورسوله**».

كما نزلت الآيات مخاطبة المؤمنين على لسانه صلى الله عليه وسلم: (قل **إنما أنا بشر مثلكم** يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) [الكهف: 110].

وقوله تعالى: (قل **إنما أنا بشر مثلكم** يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين) [فصلت: 6].

وحتى آخر لحظة في حياته.. كان التحذير من آثار الغلو والإطراء..

فعندما مرض النبي صلى الله عليه وسلم، تذاكر بعض نسائه -أم حبيبة وأم سلمة- كنيسة بأرض الحبشة يقال لها «مارية» -وكانتا قد أتتا أرض الحبشة- فذكرن من حسنها وتصاويرها..

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح**

([16]) البخاري (3261).

فمات بنوا على قبره مسجدًا ثم صوروا فيه تلك الصور.. أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»[17].

والقاعدة في إثبات مقام النبوة هو: إثبات بشرية النبي والتأكيد على حد العبودية، وإثبات خصيصة الوحي وحفظ مقام النبوة، ويجمع ذلك قوله سبحانه: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد) [الكهف: 110].

فتقرر الآيات (إنما أنا بشر)، ولكن هذا التقرير قد يوهم أنه يختلف في بشريته عن غيره، فيأتي لفظ: (مثلكم) لنفي هذا الوهم..

ولكن هذا اللفظ قد يسلب مقام النبوة خصوصيته..

فتأتي عبارة: (يوحى إلي).. لتؤكد على خصوصية مقام النبوة..

ثم يأتي الحد الفاصل بين مقام الألوهية ومقام البشرية والنبوة: (أنما إلهكم إله واحد)

ولإخراج مقام النبوة من العلاقة بين الله وخلقه.. تأتي العبارة الأخيرة..

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا).

ويفسرها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة رضي الله عنها: **«يا فاطمة بنت محمد..! أنقذي نفسك من النار.. فإني لا أملك لك ضرًّا ولا نفعًا»**[18].

وفي نفس الإطار يأتي قوله صلى الله عليه وسلم: **«أيها الناس إنه قد كان لي فيكم إخوة وأصدقاء، وإني أبرأ إلى الله أن يكون لي فيكم خليل، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، وإن ربي اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم**

([17]) البخاري (1276).

([18]) مسلم (204).

مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»[19].

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»**[20]..

فجمع بين التحذير من اتخاذ قبره عيدًا، والأمر بالصلاة عليه.

وعلى نفس النهج مضى أصحابه وآل بيته، فعن أبي الهياج الأسدي أنه قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم «**ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»**[21].

وعن سهيل بن أبي سهيل أنه رأى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فالتزمه ومسح قال: فحصبني حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تتخذوا بيتي عيدًا، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا علي حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني»**[22].

وحتى مجرد الألفاظ الموهمة.. نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد سمع يومًا بعض الصحابة يقول له: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعلتني لله ندا؟!**»[23].

الشهادة.. والبيعة.. والانتماء:

ومن أهم أحكام حماية الدين: المفاصلة بين أتباعه ومن سواهم..

وقد كانت هذه المسألة ثغرة تاريخية تسللت منها الوثنية إلى دين المسيح..

وذلك بسبب غياب الأحكام الضابطة لمسألة الانتماء لهذا الدين..

حتى تبوأ بولس مكانة الداعية لدين لم يؤمن هو به بعد..!

([19]) مسلم (532).

([20]) سنن أبي داود (2042).

([21]) مسلم (696).

([22]) سنن أبي داود (2042).

([23]) صحيح ابن خزيمة (2461).

وحتى غدا قسطنطين راعيًا وحاكمًا للأمة النصرانية، بينما كان وثنيًّا لم يتم تعميده إلا في فراش الموت..!

ومن هنا يبرز دور الأحكام الإسلامية التي تحمي الدين من اختراقه، والتباس أتباعه بأعدائه..!

وأول هذه الأحكام: الشهادة التي يصبح بموجبها الإنسان مسلمًا..

والتي تقتضي الإعلان الصريح عن الانتماء إلى عقيدة الإسلام، والالتزام التام بالشريعة جملة وعلى الغيب، والتبرؤ كلية من كل ما يخالفها..

عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم حين أتيته فقلت: والله ما أتيك حتى حلفت أكثر من عدد أولئك -يعني الأصابع- ألا آتيك ولا آتي دينك -فجمع بهْزٌ بين كفيه- وقد جئتك امرؤ لا أعقل شيئًا إلا ما علمني الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم..

وإني أسألك بوجه الله بما بعثك ربك إلينا؟

قال: «بالإسلام».

قلت: وما آيات الإسلام؟

قال: «**تقول: أسلمت وجهي لله، وتَخَلَّيْت، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة..**

وكل مسلم على مسلم مُحَرَّم، أخوان نصيران..

لا يقبل الله من مسلم أشرك بعدمًا يسلم عملاً..

وتفارق المشركين إلى المسلمين.. ما لي أمسك بحجزكم عن النار..؟!

ألا وإن ربي تبارك وتعالى داعي وإنه سائلي: هل بلغت عبادي..؟!

وإني قائل: رب قد بلغتهم، فليبلغ الشاهد الغائب..

ثم إنكم مدعوون.. مُفْدَمَةٌ أفواهُكم بالفِدَام..

ثم إن أول ما يبين عن أحدكم لَفَخِذه وكَفّه..»

قال: قلت: يا رسول الله هذا ديننا؟ قال: «**هذا دينكم**»[24].

ونلاحظ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أسلمتُ وجهي لله، وتَخَلَّيْت**» والذي يمنع دخول أحد في هذا الدين بأي شيء يخالفه..

والدليل القاطع على وجوب حماية الإسلام من تجربة الخلط النصرانية هو صيغ الشهادة التي يدخل بها النصارى إذا أرادوا الدخول في الإسلام..

عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله من أبواب الجنة الثمانية، من أيها شاء.. على ما كان من العمل**»[25].

يقول العلامة ابن حجر العسقلاني: (ويستفاد منه ما يُلَقَّنه النصراني إذا أسلم، قال النووي: هذا حديث عظيم الموقع، وهو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد؛ فإنه جُمِعَ فيه ما يخرج عنه جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدهم. وقال غيره: في ذكر عيسى تعريض بالنصارى، وإيذان بأن إيمانهم مع قولهم بالتثليث شرك محض، وكذا قوله: «عبده» وفي ذكر «رسوله» تعريض باليهود في إنكارهم رسالته وقذفه بما هو منزه عنه وكذا أمه).

وثاني هذه الأحكام: البيعة على الدين الصحيح.. وهي الأساس العقدي والشرعي لدخول الإنسان في عقد الإسلام.

وقد مر آنفا كيف لم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم مبايعة رجل على بعض شرائع الإسلام دون بعض.

ولذلك اختلفت صيغة البيعة باختلاف المبايع، باعتبار أن معنى البيعة هو

([24]) مسند أحمد (20055).

([25]) مسند أحمد (22727).

الالتزام، وأن الالتزام مرتبط بمن يبايع[26].

وبعد البيعة على الإسلام والإقرار بالشهادتين ينطبق على صاحب البيعة والشهادة اسم «**المسلم**» الذي لا يجوز إطلاقه على غير المسلمين، حماية لمعنى الانتماء..

وهو من أهم أسباب حماية الدين، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن..**

الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله..

فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع..

ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثاء جهنم، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم..

فادعوا بدعوى الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله»[27].

ولذلك رد النبي صلى الله عليه وسلم ادعاء أسقف نجران بأنه مسلم، حين قال له: «**يا أبا الحارث، أسلم..**» قال: إني مسلم، قال: «**يا أبا الحارث، أسلم..**» قال: قد أسلمت قبلك، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: «**كذبت..! منعك من الإسلام ثلاثة: ادعاؤك لله ولدًا، وأكلك الخنزير، وشربك الخمر**»[28].

وعلى أساس الانتماء الصحيح للإسلام يكون الولاء الذي يمنع التشبه بغير المسلمين، حتى لا يختلط الدين في أفهام الناس، وتكون المفاصلة التي تمنع المداهنة والمساومة في الدين.

وفي الوقت الذي ينهى فيه الرسول عليه الصلاة والسلام عن التشبه بغير

([26]) لذلك اختلفت صيغ مبايعة النساء عن صيغ الرجال.

([27]) أخرجه الترمذي (2790)، وأحمد (16542، 17132).

([28]) مصنف ابن أبي شيبة (427/7).

المسلمين، في العبادة والتصرف والصورة.. نرى النصارى في تحريفهم للدين قد تشبهوا بالوثنيين في عقائدهم وعباداتهم..!

وبينما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تبرز، فإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب، ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها.. فإنها تطلع بين قرني الشيطان**»[29].

وذلك أن تقديس الشمس واستقبالها عاملٌ مشترك بين جميع الديانات الوثنية..

نجد النصارى لم يدعوا أمرًا من أمور الوثنيين إلا وأدخلوه في دينهم..

ابتداءً من يوم الأحد Sunday، الذي كان يقدسه الوثنيون، ويعني يوم الشمس..

وتحويل القبلة باتجاه شروق الشمس..

وانتهاءً بالصلاة وقت الشروق والغروب..

ومن هنا تأتي سورتا الإخلاص والكافرون في سنة الفجر والمغرب، قبل شروق الشمس وبعد غروبها، لتكون الأولى إثباتًا لصحة الاعتقاد، والثانية ثباتًا على الاعتقاد الصحيح والمفاصلة عليه..

وبهما تكون الحماية الكاملة للدين من الانحراف.

([29]) البخاري (3099).